تقديم أطروحة دكتوراه بعنوان: مدخل إلى الإنشاد الديني في الصحراء

إعداد: فاطمة عبد الوهاب
إشراف: الأستاذ الدكتور عبد الله محمد سالم السيد

نوقشت يوم 21 نوفمبر 2019 بجامعة نواكشوط العصرية وحصلت على ميزة مشرف جدا مع توصية بالنشر

بداية أتقدم بجزيل الشكر وخالص العرفان للأساتذة الأجلاء أعضاء اللجنة الموقرة على تجشم عناء القراءة والتصويب والنقاش، كما أتوجه بشكر خاص لأستاذي الأستاذ الدكتور عبد الله محمد سالم السيد الذي قبل مشكورا الإشراف على هذا العمل واضعا خبرته الأكاديمية ووقته الثمين تحت تصرفنا في مختلف الأوقات والأحوال...، والشكر موصول كذلك للسلطات العلمية والإدارية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية على ما لقيناه لدى الجميع من تسهيل وعون وتشجيع.

الموضـــوع الذي أتقدم به أمامكم اليوم -كما ينطق به العنوان- عبارة عن مدخل لتناول ممارسـة ثقافية تليدة في فضـائنا الصـحراوي هي ممارسـة الإنشـاد الديني، وهي ظاهرة يتقاطع فيها الجمالي والعقدي والاجتماعي والمادي...، أو بكلمة واحدة الثقافي من جهة، والطبيعي من جهة ثانية تقاطعا مركب الأوجه تركيب الذات الإنسـانية، متعدد المظاهر تعددَ صـيغ التعبير عن مكنونات تلك الذات الواعية واللاواعية.

وتتداخل في تأليف هذا العنوان -ضمنيا- عناصر الزمان والمكان والإنسان، إذ يطرح -من منظور انتروبولوجي- إشـكالية العلاقة بين مظاهر التعبير (أو مسـتويات الخطاب) الفردي والجماعي، وبين وقائع وشروط الحياة زمانا ومكانا ووسائلَ عيش. فالظاهرة الثقافية -المتجسدة هنا في الخطاب الإنشـادي- ليست معزولة عن شرط تشكلها، إذ هي منظومة تواصـلية متكاملة، تتعاضد مفرداتها لتشكل مجتمعة صياغة ديناميكية لتصور المجموعة الاجتماعية لذاتها وللإنسان والعالم. إنها بالطبيعة إجابة أصيلة متعددة الأوجه عن شرط الحياة المخصوص.

ولئن بدا في الصـــياغة المقترحة في هذا العنوان نوع من حصـــر الثقافي (الممارســـة الإنشـادية) في محيط طبيعي مخصـوص هو الحيز الجغرافي للصـحراء الإفريقية الكبرى، فإن الطبيعي هنا -في حقيقته- غيرُ منفك عن الثقافي. فهذه الصـحراء، وإن دلت لدى الجغرافيين على موقع معين ذي شـكل تضـاريســي محدد السـمات والأبعاد، فإنها في اسـتعمالنا المبثوث في تضـــاعيف هذا العمل لا ترتهن لمحددات الجغرافيا الطبيعية المحض، وإن لم تنفك عنها تمام الانفكاك؛ إنها فضاء ثقافي وليست مجرد بقعة من الأرض.

ذلك أننا حين نتحدث عن الممارسات الإنشادية الصحراوية، فإننا نستحضر في الوقت ذاته أوجه المثاقفة التي جسـدتها تلك الممارسـات بين ضـفتي الصـحراء الكبرى -في النطاقين السوداني والشمال إفريقي- خلال هجرتها (أي الممارسات) من وإلى هذا الفضـاء الصـحراوي حاملة معها "عدوى" الطقس الإنشـادي، بالمسـتوى ذاته الذي نسـتحضـر به تلك الأشـكال القائمة أصلا داخل الصحراء (بمفهومها الإيكولوجي الصرف).

فلقد نجحت سـاكنة هذا الفضـاء الثقافي منذ قرون في صـياغة نموذج إنشـادي ذي طابع ديني متعددِ الخلفيات والمظاهر والآليات والأدوات... متقاربِ المنطلقات والرؤى والدوافع وحتى الأشـــكال، نموذجٍ يتطلع فيه المنشـــد إلى المتعالي مســـتبطنا مفردات الوجود المادي

المحسوس، ويستحضر المقدس متلبسا مظاهر الحياة اليومية للناس، في تعبير أصيل عن التصورات والمواجد والحاجات التي تلح على الإنسان في حياته اليومية.

وطبيعي أن تستبطن إشكالية الخطاب الإنشادي -هنا كما في أي تجربة بشرية أخرى- إشكاليات فرعيةً تتعلق بمستويات التعبير الإنشادي وآلياته ورهاناته، وبأنساقه ومواسمه وفضاءات إقامته، ونوعية الاختيارات النصية الخاصة بكل نسق إنشادي، فضلا عن دور الهندسة الاجتماعية والاختيارات الروحية والشروط الإيكولوجية في تنويع صيغه وبناء طقوسه...

دوافع الاختيار

تعود علاقتي الشخصية بالظاهرة الإنشادية إلى أيام العمر الخوالي، فقد عايشت -شأن أترابي من سكان المنطقة- الإنشاداتِ الدينيةَ بتجليات وفي مناسبات مختلفة على المستوى الوجداني والانفعالي منذ نعومة أظافري. أما الاهتمام بها على مستوى التفكير والتأمل فيرجع لما يزيد على عقد من الزمن.

فقد كان الإنشاد -بما يحمله من دلالات دينية، وما يختزنه من أبعاد رمزية وطاقات تأويلية- موضوعا لاتفاق مع الأستاذ الذي كان مشرفا على عملنا في السلك الثالث الأستاذ الدكتور عبد الحميد بورايو، ناب عني بمقتضاه في استكمال إجراءاته العلمية، غير أن السلطات القنصلية وقتها منعت من استكمال الإجراءات الإدارية.

وقد كان هذا الاهتمام وراء تولي تدريس عنصرين لسنوات في كليتنا: أولهما كان في نطاق مقرر الثقافة الشعبية لصالح طلاب الفصل الثاني من الماستر. أما الثاني منهما فهو خاص بطلاب السداسي الرابع من الليصانص ضمن عنصر الأساطير والثقافة الشعبية.

عوائق البحث

على رغم معايشة الموضوع كل هذه المدة تذوقا وتأملا وجمعا، فقد عانينا في إنجاز البحث حوله صعوبات متنوعة الأوجه تتنزل أبرزها على المستويات التالية:

- ✓ **عوائق تتصل بطبيعة الموضوع:**

وتتعلق أساسا باتساع الفضاء الصحراوي، وتنوع اللغات المستعملة داخله، وكذلك انغلاق بعض الممارسات الإنشادية أمام الدارس نظرا للحدود التداولية المسموح بها بالنسبة لتلك الممارسات، ثم بالنظر إلى تشتت المادة المرجعية داخل حقول معرفية عديدة...

- ✓ **عوائق خاصة بالباحثة:**

وهي متنوعة يأتي في طليعتها جهل كثير من اللغات المحلية التي يتم بها الإنشاد. وقد ساعدت في تجاوز هذه الصعوبة جهود زملاء باحثين وإخوة ممارسين للإنشاد بتلك اللغات ممن تعاطوا -مشكورين- معنا جمعا وترجمة وشرحا، إضافة إلى اطراد الإنشاد الديني لدى مختلف الأقوام -مهما كانت اللغة المتحدثة لديهم- بالعربية الفصحى.

- ✓ **عوائق ناجمة عن انقطاع النسب المعرفي للدراسة:**

فبالرغم من وفرة الدرس المتعلق بمظاهر التدين المحلية في المنطقة، وبالنشاط الغنائي والموسيقي لدى الساكنة، فإننا لم نظفر خلال بحثنا الأولي عن المادة المرجعية على أي دراسة متخصصة في الإنشاد الديني بالمنطقة، ولا حتى بحدودها الثقافية القريبة.

الدراسات السابقة

مع ما أشرنا إليه من شح المادة المرجعية المتخصصة بشكل حصري في مجال الإنشاد الديني بالمنطقة، فقد استفدنا من دراسات ذات تماس -جزئي- مع موضوع البحث يمكن أن نتوقف منها خاصة عند الأعمال التالية:

كتاب حول **"الثابت والمتغير في الإنشـــاد الديني: دراســـة في الموســـيقى الشـــعبية المصرية"** للباحث المصري الدكتور محمد عمران.

كتاب للبروفيسور المرحوم عثمان موسى دياكانا عن **"الإنشاد التقليدي لدى السونينكي في موريتانيا ومالي والسنغال"**[1]

أما العمل الثالث فهو كتاب عن **"الغناء الحســـاني بين التنظيم والتلقائية"** للباحثة عزة بيروك[2]

ومن أهم الأعمال ذات التماس الجزئي مع موضوع عملنا كتاب عن **"موسيقى المواجيد: مقاربات في فن السماع الصوفي المغربي"**[3] من تأليف الدكتور محمد التهامي الحراق.

وهناك عمل توسّـمنا أن يكون من المراجع المفيدة لنا هو كتاب **"الموســيقى والغناء في الصحراء"**[4]

وقد أصـدر الباحثان سـالم حسـين الأمير وعلي عزيز العبيدي- أثناء إعدادنا لهذا البحث- كتابا عن **"الموسيقى وشعر الحب في الفكر الصوفي"**[5].

وأثناء تحضـــيرنا لهذا العمل كذلك ناقش الباحث بن فاقة خالد بجامعة وهران الثانية أطروحة دكتوراه حول **"صورة المرأة في الغناء الشعبي: غناء المداحات نموذجا"**[6].

ولا شك أننا قد استفدنا من كل هذه الأعمال بأشكال وعلى مستويات مختلفة، غير أننا لم نجد في أي منها ســـندا نظريا أو تطبيقيا ركينا، وذلك إما لعدم اشـــتراك المجال الثقافي، أو بحكم اختلاف المقاربة وطبيعة الرؤية.

وخارج حقل الدراسات ذات الارتباط -كليا أو جزئيا- بميدان الإنشاد الديني، فقد استفدنا - حيثما وجدنا ذلك ناجعا- من عديد الأعمال في مختلف الحقول المعرفية ذات التقاطع مع مجال عملنا.

المنطلقات المنهجية

لقد اســـتدعت منا الطبيعة العيانية للموضـــوع اعتماد المنهج الأنتروبولوجي القائم على المعاينة والحوار المباشر وجمع ومقارنة المعطيات، مع الاستفادة متى ما دعت ضرورة التحليل- من الأدوات التي توفرها مختلف المناهج المعتمدة في حقل الدراسات الثقافية، وخاصة عند قراءة الظواهر والنصوص أو إضاءتها تاريخيا أو فنيا...

---

[1] - Ousmane Moussa Diagana, **Chants traditionnels du pays soninké (Mauritanie, Mali, Sénégal…)**, l'Harmattan, Paris, 1990.

[2]- عزة بيروك، **الغناء الحساني بين التنظيم والتلقائية**، مركز الدراسات الصحراوية، الرباط، 2015.

[3] - محمد التهامي الحراق، **موسيقى المواجيد: مقاربات في فن السماع الصوفي المغربي**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2010

[4] - الدكتور محمد سعيد القشاط، **الموسيقى والغناء في الصحراء**، دار أونيا الجديدة للابداع، طرابلس - ليبيا.

[5] - سالم حسين الأمير وعلي عزيز العبيدي، **الموسيقى وشعر الحب في الفكر الصوفي**، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، 2013.

[6] - خالد بن فاقة، **صورة المرأة في الغناء الشعبي: غناء المداحات نموذجا**، أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع، جامعة وهران 2، 2015.

وخلال مراحل إعدادنا لهذه الدراسة قمنا -في مناسبات مختلفة وبأهداف شتى- بزيارات -أو زيارة واحدة على الأقل- لمعظم بلدان النطاق الصحراوي وبعض دول جواره السوداني، كما اشتركنا في عديد التظاهرات الإنشادية (محكمين أو محاضرين أو محاورين). وقد مكننا ذلك من الحصول على مادة نفيسة ساعدت في بلورة تصورنا عن الموضوع وفي توفير خيارات متعددة لانتقاء العينات الإنشادية.

وكان اعتمادنا في قراءة تلك المادة وإعادة بنائها- فضلا عن المدونة الإنشادية ذاتها ومقابلاتِ الشخصيات المرجعية- على المعطيات النظرية والتطبيقية التي وفرتها لنا المادة المرجعية داخل الحقول المجاورة لميدان الدرس، وبالذات الأعمال المتعلقة بمجالات التصوف والفقه والأدب وكتب المناقب والسير والتاريخ وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا ودراسات الفرجة وفنون الموسيقى والعمارة...،

وبعيدا عن أي ادعاء بأن ما نقدمه عملا بكرا في موضوعه، فقد كنا مضطرين -ونحن نعبر طريقا غير معبد المسالك- إلى الصياغة على غير مثال (في مستوى التصور ونوع المقاربة على الأقل)، فاكتفينا بالاستئناس بما نراه مفيدا في مختلف الحقول المعرفية.

خطة العمل

لقد ارتأينا -انطلاقا من معاينة الوقائع والنصوص الموجودة لدينا- أن نبني البحث اعتمادا على الخُطة المنهجية التالية:

المقدمة العامة: عنينا فيها بإضاءة جوانب البحث من خلال إبراز إشكالياته ورسم حدوده النظرية والمنهجية.

الباب الأول: **"الإنشاد الديني في المفهوم والتشكل"**، وقد تألف من فصلين أولهما حول **"مفهوم الإنشاد الديني"** وقد حاولنا فيه ضبط هذا المفهوم منبهين بداية إلى قلق اصطلاحي طاله، تجسد في إهمال المعاجم العربية له، وعزوف من اطّلعنا على أعمالهم من المهتمين بالحقل الفني عامة عن تحديده على وجه يقيني. وقادنا مسعى ضبط هذا المفهوم إلى التعرض لبعض المصطلحات المجاورة له في حقل الاستعمال مشيرين إلى أوجه ائتلاف تلك المصطلحات واختلافها معه من حيث المحتوى الدلالي.

أما الفصل الثاني من هذا الباب فقد خصصناه لـ **"تشكل الإنشاد الديني"** فتناولنا فيه مسار تخلّق هذا الإنشاد في النطاق الصحراوي وأهم الانعطافات التي عرفها والعوامل الفاعلة في ذلك المسار، متوقفين عند الحركات والتيارات التي كان لها إسهام خاص في بلورة وإشاعة أشكال إنشادية ما تزال حية في الواقع الأنتروبولوجي الراهن.

الباب الثاني: **"الإنشاد الديني في الزمان والمكان"**، وهو مؤلف كذلك من فصلين تعرض أولهما لـ **"مواسم الإنشاد الديني"** من حيث ثباتها أو تغيرها في الزمان، ثم من حيث اتصالها بالحياة العامة والخاصة للأفراد والمجموعات ناظرين إلى هذه المواسم في علاقتها بالمناخ الروحي والاجتماعي والوجداني.

وخصصنا الفصل الثاني من هذا الباب لـ**"فضاءات الإنشاد الديني"**، فتم التركيز فيه على طبيعة الحيز المكاني المؤطر للمجالس الإنشادية من حيث الثبات والانتقال، ثم من حيث علاقة المكان الإنشادي بالمقدس والمعيش، قبل أن يتم التطرق إلى الطبيعة المعمارية للفضاء الإنشادي.

الباب الثالث: **"الطقس الإنشادي: الأنساق والبناء المشهدي"**، وقد تأسس هذا الباب على فصلين تناول الأول منهما **"أنساق الإنشاد الديني"** فاستعرضنا فيه طبيعة البناء النسقي للإنشاديات الصحراوية في علاقته بمقصدية الخطاب وبالتراتبية الاجتماعية والتقسيم الفئوي والإثني والتوزيع العمري والجنسي، ثم بمقامات الورود، وطبيعة التمظهرات اللغوية.

أما الفصل الثاني من هذا الباب فقد خصص لـ**"المشهد الإنشادي"** فتوقفنا بداية عند مفهوم المشهد في السياق الإنشادي، قبل أن نتعرض لمفردات ذلك المشهد والعلاقة بين أطرافه والآلات والآليات المستخدمة فيه، وطبيعة البنيات المشهدية من حيث الحركة والسكون والانفتاح والانغلاق. ثم تناولنا عناصر الفرجة في هذا المشهد ورهاناتها الروحية والاجتماعية والتربوية والجمالية...

الباب الرابع: **"النص الإنشادي: البنيات الفنية والمدارات الدلالية"**، وقد حاولنا في فصله الأول الذي خصصناه لمسألة **"البناء الفني للنص الإنشادي"** إبراز أهم البنيات الفنية للنص الصحراوي على مستوى الإيقاع والمعجم والصورة الشعرية معرجين -متى ما رأينا ذلك واردا- على مظاهر التقائه مع تقاليد الكتابة الشعرية عند العرب، مبرزين -في الآن ذاته- أوجه الخصوصية والطرافة في الإنشادية الصحراوية.

وفي الفصل الثاني من هذا الباب حاولنا رصد **"المدارات الدلالية"** للإنشاديات من خلال مساءلة مختلف البنيات الغرضية في مستوى أول، ثم التعرض لأهم التيمات التي ألحت على المنشدين في مستوى ثانٍ.

الخاتمة العامة: استهدفت حوصلة أهم الخلاصات التي انتهى إليها البحث، والآفاق العلمية التي يمكن أن يفتحها.

وقد أشفعنا العمل بملحقات نراها ضرورية إما لاستكمال صورة الموضوع، أو لتيسير الوصول إلى المعطيات الواردة في البحث. وقد شملت تلك الملحقات:

- ✓ ثبتا للمصطلحات المحلية المستخدمة قدمنا فيه تعريفات موجزة لتلك المصطلحات تستهدف تقريبها من القارئ العربي خارج النطاق الصحراوي،
- ✓ نموذجين لهجيين من نصوص المدونة ارتأينا إيرادهما ضروريا نظرا لاقتصار تداولهما على محيطهما الإنشادي الخاص.
- ✓ فهرسا للمصطلحات ذات الصلة بالإنشاد مفاهيمَ وأدواتٍ.

خلاصات البحث

انطلقنا -إذن- في معالجة هذا الموضوع من تصور للظاهرة الإنشادية يحاول وضعها في إطارها الشمولي بما يقتضيه ذلك من وقوف عند مفاهيمها ومسايرة لسياقاتها وشروط تشكلها وطبيعة الفاعلين فيها وأوجه التفاعل التي تسمح بها وطرائق بناء نصوصها وصيغ تداولها...

وقد لاحظنا أن الإنشاد الديني في المنطقة الصحراوية، وإن انتهى به راهن الممارسة العملية إلى صيغ إسلامية، فإنما هو في الحقيقة خلاصة مسار طويل من التثاقف بين الديانات والأعراق والأقوام، شمل الوثني واليهودي والمسيحي كما مارسته الشعوب الرومانية والسودانية والبربرية والعربية...

فقد أسهمت -إذن- في بلورة هذا الإنشاد وتنويع صيغه وإغناء مضامينه وتوسيع مستويات تداوله، عواملُ الزمان والمكان، كما دفعت مسارَه وروجت لأشكال منه حركاتٌ وتيارات تعاقبت على المنطقة أو تعايشت داخلها...

ومن هنا فقد سمحت لنا معطيات الأركيولوجيا الثقافية للمنطقة ومحيطها الجيوثقافي بصياغة جملة ملاحظات نورد أهمها فيما يلي:

الملاحظة الأولى حول روافد الإنشاد الديني الصحراوي، فقد تشكلت العناصر الإنشادية بالمنطقة من تلاقي رافدين كبيرين:

- ✓ أما أولهما فهو محلي نسج مكوناتِه ركامٌ من المعتقدات وأنماط السلوك الديني والدنيوي في شتى مستويات الهرم الاجتماعي صاغتها الساكنة الأصلية عبر الزمن، لتكون وسيلتها للتطريب والفرح والتعظيم ودفع المخاطر واستجلاب الرغائب...
- ✓ وأما ثانيهما -وأعظمهما أثرا فيما تتعاطاه الساكنة اليوم- فرافد عربي إسلامي حملته الصيغ واللحظات الإسلامية المختلفة بدءا بترديدات الأذان وترانيم التلاوة والأدعية، وخطب الوعاظ، مرورا بأوراد المتصوفة، وانتهاء بتكريميات المحتفين واستسقائيات الأطفال وإنشاديات المتعليمن وحبوريات الأعياد والحفلات الاجتماعية...

الملاحظة الثانية تتعلق بالأنساق الإنشادية، فبغض النظر عن المسار التاريخي الذي أفضى إلى ما نشهده اليوم في مناسبات التعظيم ومواسم الرهَب والرغَب، فقد تبدّى لنا من خلال الدراسة أن الظاهرة الإنشادية قد حكمتها أنساقا ومشاهد قوانينُ الاجتماع البشري، فعكست اختلاف الميول والانتماءات والسلوك والمواقف، وتنوعت بذلك مظاهر الإنشاد الديني بين التعبدي بصيغه والطربي بتنويعاته واختلاف دوافعه وخصوصيات منتجيه على مستوى الانتماء الإثني والخلفيات المعرفية والمواقع الاجتماعية...

الملاحظة الثالثة خاصة بالسياق الإنشادي، فلقد بينت المعطيات الأنتروبولوجية اختلاف مواسم ومداءات الإنشاديات الدينية. وقد غطت الإنشاديات مفاصل الزمن الفيزيائي والنفسي والاجتماعي، فتوزعت -تبعا لأنساقها ومراميها وتراتب القائمين بها في السلم الاجتماعي- على الساعات والأيام ومفاصل السنة ومنعطفات الحياة الاجتماعية...

وكما اختلفت المناسبة التي تستدعي النشاط الإنشادي باختلاف النمط الإنشادي والموقع الاجتماعي والمستوى العلمي والانتماء الروحي...، فقد تباينت كذلك طبيعة المكان والنظرة إليه تبعا لتلك الاختلافات.

وهكذا بدا زمان الإنشاد ومكانه مفصّليْن على مقاس الوجود منغمسيْن في معمعان الحياة اليومية للساكنة محمّليْن بهموم الإنسان ومواجده وتمثلاته عن ذاته وعن المجتمع والكون. فكان للفضاءات والمواسم دورها الحاسم في تحديد مدى وطبيعة الطقس الإنشادي، ليس على مستوى الكلمة والأداء فحسب، لكن أيضا بالنسبة للمؤدين وطبيعة المتلقين ونوع التلقّي وأشكال الاستجابات...

الملاحظة الرابعة تعني الحدث الإنشادي ذاته، فقد تبين لنا من خلال مراحل تتبعنا لتشابكات العناصر المشار إليها أعلاه (الزمان، المكان، الإنسان) أن الطقس الإنشادي قد اصطبغ بالطابع الخاص للبيئة ونحلة العيش والموقع الاجتماعي والزاد المعرفي والانتماء الروحي... ومن هنا كانت تباينات الأنساق الإنشادية والمشاهد الفرجوية...

الملاحظة الخامسة حول الاختيارات الإنشادية، فقد لاحظنا استجابة المتن المنشد لمختلف الأوضاع والحاجيات التي ألحّت وتلحّ على الإنسان في حياته اليومية، فكان لكل وضعية مادتها الإنشادية الخاصة فرحا أو حزنا، خوفا أو أملا...

على أن النص الإنشادي الصحراوي -مع ذلك- نبت داخل إطار انتروبولوجي تحكمه منظومة دينية اجتماعية بالغة التركيب تجعله ذا فاعليات وقابليات متعددة ترتبط حينا بمضمون أو سياق القول، وأحيانا أخرى بذات المنشئ (الصالح أو الولي) أكثر مما تتصل بالمحتوى الدلالي الظاهر للنص محل الإنشاد.

وقد لاحظنا توزع الخريطة النصية للمتن المنشد بين منزعين: **أولهما** تقليدي يصغي إلى البنية الأصلية للقصيدة العربية في الأساليب الفنية والصيغ التعبيرية وأشكال البناء الغرضي ونوع التيمات النصية... كما صاغها المداحون الأول (حسان وكعب وأضرابهما...).

أما المنزع **الثاني** فهو إلى طرائق المحدثين -وخاصة في الفضاءين الأندلسي والمغربي- أقرب، سواء على مستوى محاورة نصوص بعينها والبناء انطلاقا منها، أو بالنسبة إلى طبيعة استخدام الأوزان المولدة الفصيحة ومحاورة اللهجات الشعبية، أو على مستوى التخلص من بعض التيمات والقوالب الغرضية أو تحويرها على الأقل.

الملاحظة السادسة تتعلق ببعض أوجه الأصالة في التجربة الإنشادية الصحراوية، وهنا يمكن أن نسجل النقطتين التاليتين:

- ✓ من اللافت -وبصفة أوضح في النص الإنشادي ذي الطابع الشعبي- التباس العلاقة في أحايين كثيرة بين التاريخ المدون والذاكرة المحلية، حيث تفرض الأخيرة معطياتها على الأول، فإذا الممارسة الإنشادية تبني "حقائقها" على مستوى النص في غفلة من وقائع التاريخ وشواهد السير.

  وبذلك نجد أحداثَ وشخصياتِ السيرة النبوية وقد بنيت بشكل مغاير لما هو مسطر في المدونة التاريخية المعروفة، حيث تتداخل المعايير والقيم المحلية مع ما هو مقرر في مصادر التاريخ المختلفة (كتب السير، كتب الأخبار، المغازي...).
- ✓ لعل من أبرز مظاهر التفرد التي سجلتها الإنشاديات الصحراوية، وأكثرها انغراسا في جذور التكوينات الاجتماعية، ما أضافه النص الشعبي -دون غيره من عينات المتن- من تمحيض النص المديحي للغرض الغزلي من جهة، وإفراد نص من متن المديح النبوي -ربما دون سابق مثال- لغير الرسول عليه الصلاة والسلام من ناحية أخرى.

  وقد لا يكون هذا الانزياح المسجل نشازا بالنسبة إلى خصوصيات الطقس الإنشادي الصحراوي المرتبطة بمستوى حضور المؤنث في الخطاب عامة، وهي خاصية لا تبدو لنا معزولة عن الواقع الأنتروبولوجي الذي كان إلى فترات قريبة نسبيا سائدا في المنطقة واسما لثقافتها.

  وتعكس هاتان الخاصيتان (تفرد الغرض الغزلي وبروز المؤنث) -في ما نزعم- نجاح الخطاب الإنشادي الصحراوي في تكريس الخاص والمحلي، حتى لو كان أحيانا على حساب الثابت والمتعارف عليه في أدبيات الثقافة السائدة.

الملاحظة السابعة والأخيرة تخص مستوى انتشار الظاهرة الإنشادية في المجتمعات الصحراوية على المستوى الأفقي، فيبدو أن الفعل الإنشادي شكل -عكسا للرائج من التصورات- مكونا قارا من مكونات نحلة العيش لدى سكان الصحراء بمختلف ميولهم وانتماءاتهم ومرجعياتهم ومراتبهم، يجدون فيه ذواتهم، ويمارسون من خلاله فاعلياتهم ويلتمسون عبره تغيير ما بأنفسهم...

وهم بذلك يجسدون -وإن في حدود اللحظة الإنشادية- قانونا للتعايش والسكينة يرتكز على السماح للجميع برؤية ذاته والدفاع عن موقعه وإعادة قولبة منظومته القيمية والاجتماعية طبقا لجدلية المتعالي والمعيش في حياة الإنسان ووعيه وخطابه.

وبهذا المعنى فإننا نزعم أن الخطاب الإنشادي بكل أنساقه وأدواته ورهاناته شكل -في مستوى من المستويات- مسعى لتجاوز الشرط الإنساني من خلال إعادة صياغة -ليست واعية بالضرورة- للمجتمع والتاريخ على ضوء حاجات الإنسان وتمثلاته وأشواقه وآماله...؛ ولعل روح التجاوز تلك تكون أحد عوامل استمرار وتجدد صياغات ذلك الخطاب كلما تبدلت أحوال وتغيرت قيم.

آفاق العمل

لئن كانت الطبيعة الاستكشافية لموضوعنا، وتشتت معطياته، وانعدام الأرضية المقارنة الناجم عن غياب الدراسات المتخصصة في بابه قد حالت-من بين عوامل أخرى- دون أن نبلور في عملنا هذا رؤية مكتملة عن النشاط الإنشادي لدى شعوب المنطقة ونخرج حوله بصياغة نظرية متكاملة تتوقف عند مختلف مراحله وتبسط القول في جزئياته؛ فإننا نتمنى أن نكون بهذه الفذلكة الأولية قد وضعنا الموضوع في دائرة الضوء.

وكما بيّنا في الخاتمة، فإن هذا البحث -كما يصرح عنوانه- يبقى مجرد عتبة أولى على طريق دراسة مسألة الإنشاد الديني بوصفها تكثيفا للظاهرة الثقافية في تشابكاتها الدينية والاجتماعية والإيديولوجية والجمالية...

ولعل هذه العتبة -بما تتضمن من أوجه الصواب والخطأ- تكون فاتحة لأعمال أكثر رزانة تمكن من فتح ورش بحثية تفضي إلى الخروج بصياغة نظرية متكاملة تتوقف عند مختلف جزئيات هذا النشاط وتلم جميع أطرافه وتساير لحظاته التاريخية وتتعمق في خلفياته الثقافية والاجتماعية والروحية...

أساتذتي أعضاء اللجنة الموقرة، اسمحوا لي قبل إنهاء هذا العرض أن أتقدم بجزيل الشكر وخالص العرفان لكل من تكبد معنا معاناة البحث من باحثين وأساتذة وطلبة وممارسين، فإليهم يعود الفضل في ما فيه من حسنات، وعلينا وحدنا يقع كل نقص وقصور.

أجدد لكم الشكر وأعتذر عن أي إطالة بلا طائل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.